الفصل الثانى

إقامة الدولة الإسلامية
بين الهدف الدعوى واختزال التغيير

إقامة الدولة الإسلامية هدف أساسى انطلقت له وارتكزت عليه ، وعملت له الحركة الإسلامية منذ انطلقت مع نهاية العشرينات من هذا القرن الميلادى .

وربما السبب الأساسى فى ذلك اقتران نشأتها بسقوط الخلافة الإسلامية فى تركيا ، وزوال السلطان السياسى للمسلمين ، إثر تفكك أوصالها واقتسام الاستعمار الغربى أطرافها ، وربما لوجود سبب آخر مهم ، هو اقتران مرحلة السقوط هذه ، بفكرة خبيثة أشاعت فى المسلمين أن الإسلام دين لا دولة ، وأن الرسول ﷺ بُعِثَ رسولاً مبلِّغاً ، ولم يُبعث زعيماً أو حاكماً .

وخطورة انتشار هذا الفكر وتشويشه على عقائد المسلمين ، أنه يقطع أسباب التفكير عند المسلمين للنهوض من جديد لاستعادة الخلافة ، وإقامة الحكم الإسلامى .

ومن هنا فلقد كان من الخير - كل الخير - للأمة ، أن يهيئ الله لها من أبنائها مَن يكون على يقظة من هذا الأمر ، ومن ثَمَّ البدء فى التفكير فى إحباط ما أراده المستغربون ، فانطلقت فى مصر أول حركة أرادت أن تنظم عملاً جاداً ، يهدف إلى بعث الروح فى الأمة ، والوقوف أمام هذه الحملة الفكرية التى أرادت النيل من عرى الإسلام .

وإذا كانت انطلاقة الحركة الإسلامية ، حينذاك لبناء مشروع إسلامى كان على رأس أهدافه إقامة الدولة الإسلامية انطلاقاً من مشروعية دينية صحيحة ، وهى

أن الإسلام دين ودولة ، وشريعة وقانون ، ثم من مشروعية قومية تاريخية ، بالوقوف أمام الحملة الاستعمارية والفكرية ، ومن أن القعود وعدم العمل على إقامة الدولة الإسلامية والحكم الإسلامى إثم وقعود عن جهاد .

فرغم هذا الحشد من المشروعيات ، التى تدعم هذا الهدف الطموح ، ففى نفس الوقت وإزاء التعثر فى تحقيق هذا الهدف ، وتهدد المشروع الإسلامى برمته ، وتعثر استمراريته بين الحين والآخر ، وبروز هذا الهدف وسط معادلات القوى التى تجعل المسلمين رهينة فى أيدى القوى الكبرى ، ومع حيلولة السماح لبروز دولة إسلامية تفتح الطريق لإعادة الكيان الإسلامى العالمى ، ثم مع بروز الهدف كحجر عثرة أمام إفساح المجال للعاملين لتسهيل مرور مشروعهم إلى الأمة . أمام كل ذلك ، يبرز تساؤل بين الحين والآخر ، يفرض نفسه وهو :

هل كان من الضرورى ، أو من الحكمة البدء بالتهديف بإقامة الدولة الإسلامية ، وإفشاء أهداف المشروع من الألف إلى الياء ؟ من الفرد المسلم ، إلى استعادة الخلافة ، واستعادة الأندلس ، وكل أرض كانت فى حوزة المسلمين ؟ وبداية قد يكون من العدل ، لو فرّقنا بين مرحلتين ، قد تختلف فيهما الظروف والمداخلات :

الأولى : مرحلة الاحتلال الغربى للأمة .

الثانية : مرحلة الحكم الوطنى التالية .

ففى الأولى قد لا يستطيع المرء أن يجيب بالقطع ، وفى ظل تلك الظروف الغابرة ، ما الذى كان يجب البداية به وما الذى يمكن تأجيله ، وإلى أى مدى كانت هناك ضرورة بالبدء بالتهديف لإقامة الدولة الإسلامية - وعلانية - . وهل كان يمكن تجاهل البون الشاسع بين حال الأمة حينذاك ، وهو نفسه الحال الذى أضاع الخلافة ، وبين وضع يهيئ لإقامة الدولة الإسلامية ، وخاصة أن الحكم الإسلامى لم يسقط من فراغ ، سواء أكان هذا السقوط كان بفعل - خارجى ، أو من عوامل تحلل الأمم . ولماذا لم تكن فى الأهداف العملية المرحلية ، بديلاً

إلى حين ، وإلى أى مدى كان بالإمكان الصمود أمام هذا الثلاثى الخطير - بهذه الدعوة العملية - والذى يشمل عدواً مهيمناً جاء قاصداً نسف النظرية السياسية الإسلامية من الأساس ، ونخبة تؤمن بما يراه المحتلون بفصل الدين عن السياسة، ثم شعب جاهل طمست عليه المفاهيم ، فضلاً عن المثبطين من أهل التدين .

ولقد كان واضحاً أن هذا التصدر المبكر لمؤامرة العزل التاريخية - عزل الدين عن الدولة - وحيث تجاوزت محاولة التصدى ميدان الفكر إلى ميدان التنفيذ العملى ، ومن خلال مشروع عملى حركي ، تحدٍّ كبير فى ذاته ، ومن ثَمَّ كان هذا التهديف المعلن الطموح ، عملاً استفزازياً للجميع وربما هذا ما عناه وتنبأ به ببصيرة عالية ، الشيخ حسن البنا حين صارح إخوانه وتلامذته بقوله : « أحب أن أصارحكم بأن دعوتكم لا زالت مجهولة عند كثير من الناس ، ويوم يعرفوها ويدركوا مراميها وأهدافها ستلقى منهم خصومة شديدة ، وعداوة قاسية ، وستجدون أمامكم كثيراً من المشقات ، وسيعترضكم كثير من العقبات » .

ثم عدَّد من هذه العقبات قائلاً : « سيقف جهل الشعب بحقيقة الإسلام عقبة فى طريقكم ، وستجدون فى أهل التدين ومن العلماء الرسميين مَن يستغرب فهمكم للإسلام وينكر عليكم جهادكم فى سبيله ، وسيحقد عليكم الرؤساء والزعماء وذوو الجاه والسلطان ، وستقف فى وجهكم كل الحكومات على السواء ، وستحاول كل حكومة أن تحد من نشاطكم وأن تضع العراقيل فى طريقكم ، وسيتذرع الغاصبون بكل طريق لمناهضتكم وإطفاء نور دعوتكم ، وسيستعينون بذلك بالحكومات الضعيفة والأخلاق الضعيفة والأيدى الممتدة إليهم بالسؤال وإليكم بالإساءة والعدوان ... » [١] .

نقول - ومع موانع التهديف السابقة - فمن الصعوبة القطع بأن الحكمة كانت مع تأجيل التهديف بذلك . خاصة وأننا لا نستطيع أن ننكر عوامل أخرى مثل

---

(١) مجموعة الرسائل « بين الأمس واليوم » .

أن ظروف العمل كانت مهيئة لذلك ، فكانت الفرصة مواتية ومشجعة لتحقيق ذلك أكثر من ذى بعد ، فضلاً عن أن الزمن لم يكن فى صالح الأمة ، ثم اقتران هذا الهدف بمعركة التحرير من الاستعمار والمعبأة لها الأمة جميعاً ، فضلاً عن قرب عهد الأمة بمأساة سقوط الخلافة ، وعدم تغلغل الفكر العلمانى والانحرافى فى جمهور الأمة وعامتها كما هو عليه الآن ، ثم أخيراً ، توفر ذلك العامل المهم ، حيث انفتاح الساحة للعمل التنظيمى والجهادى ، وخاصة مع وجوب العمل الجهادى على كل مسلم ومصرى بلا اختيار . وهذه العوامل ولا شك تصب فى منطقية العمل لذلك ، وإن لم تكن بالضرورة مع التهديف المعلن .

ولذلك فقد يظل السؤال نفسه أكثر إلحاحاً ، وهو : ألم يكن فى الأهداف الدعوية المرحلية والعملية ، غناءً أكثر من هذا الهدف الذى يبدو أكبر من مجرد أخذ بالأسباب ، ثم لماذا لا تتجاوز الدعوة الإسلامية الوعد بإقامة أهداف مادية محددة ، وأمامها تاريخ رحب يمكن أن تصنعه ، ثم تكون فيصلاً حضارياً بين مرحلتين فى تاريخ الأمة ، وكما كان الإسلام فيصلاً حضارياً فى تاريخ البَشرية وفى تحرير العقل الإنسانى من أسر العبودية فى الاعتقاد والتصور والسلوك والقيم ؟

وإذا كان ما سبق هو الشأن بخصوص المرحلة الأولى ، فمن الطبيعى أن يختلف الحال عنه فى المرحلة الثانية ، ومن الطبيعى - كذلك - أن يختلف الأمر فى دراسة جدوى التهديف فى مرحلة الحكومات الوطنية وخاصة إذا صاحب ذلك اقتصار الطريق واختزال المراحل ، ومع الاصطدام بسنن التغيير والقانون الاجتماعى والاعتماد فقط على عامل امتلاك وسائل القوة فى معادلة الصراع مع السُلطة .

ولا أدل على ذلك من سيطرة فكرة - لبعض الوقت - تقول بتأخير عرض أى شئ من برنامج الإسلام قبل قيام الدولة الإسلامية (مع أخذنا فى الاعتبار الظروف التى قيل فيها ذلك) .

وعموماً فمن تجربة المشروع الإسلامى فى هذا القرن ، يستطيع أى مراقب ، أن يلاحظ بعض الظواهر ، التى أثّرت على عملية التهديف وصناعة الأهداف ، وخاصة فى العقود المتأخرة ، وما بعد الستينيات من هذا القرن الميلادى ، ومن هذه الظواهر :

أولاً - الارتكان على المشروعية فقط أو (تفريغ المشروعية) :

فمن مراجعة كثير من ممارسات قطاعات من الإسلاميين ، تجد الاعتماد بعفوية على مشروعية الفعل وعكسه فقط فى صياغة التحرك فى اتجاه ذلك الفعل أو عكسه ، دون مراعاة لمجمل الضوابط والظروف التى تحكم القيام بهذا الفعل أو تحقيقه على أرض الواقع .

فمن منطق مشروعية الدولة الإسلامية ، وعدم مشروعية الحاكمين بغير ما أنزل الله ، كان التركيز على الحكم فى معظم الخطاب الدعوى ، والانشغال بالقدرة على كشف الثغرات السياسية فى تجربة الحكم . فجاء الخطاب مفتقداً لبناء خطة تسهم فى إحداث تغيير اجتماعى بعيد المدى ، والاعتماد على الزمن فى إحداث التغيير المبتغى . ومن ثمّ تم تجاهل أهمية إقامة حوار اجتماعى يزلزل الأنماط والظواهر الاجتماعية ، أو حتى السياسية ، ليعيد تشكيل رأى عام يبدأ من القاعدة .

فمن هنا يمكن القول أن الخطاب الدعوى جاء اختزالياً لكثير من ضرورات التغيير ، وتهيئة الأسباب الطبيعية لإقامة الدولة الإسلامية .

ثانياً - أزمة التعامل مع الإسلام المكتمل :

أفرز العمل الإسلامى أنه يعانى من مشكلة الانطلاق فى الاجتهاد فى كثير من الأحيان من منطق النتيجة الكلية لاكتمال الدين ، فيرى من التحرج أمام هذه التجربة الكاملة ، تأخير وتقديم بعض الأعمال المقررة ، فمن أى الأعمال يبدأ وبأية وسيلة ، وما الغاية التى يجب أن يصل إليها فى مرحلة ما ، وما هى

النصوص التى يحتكم إليها ، نصوص مرحلة التمكين أم مرحلة الاستضعاف ، وخاصة فى إطار العمل لإقامة الدولة والتمكين .

وهذا أمر لم يعان منه الصحابة ، إذ كان هذا الجيل يتحرك مع تدرج التشريع، ومن هنا فالحاجة مُلِّحة لتحديد هذا التصور الواقعى ، الذى يوفق بين التطلع المرحلى ومقتضيات الصورة الكلية ، وخاصة فى مجال تحديد الأهداف .

ثالثاً - أزمة رد الفعل :

من الواضح أن العقل الإسلامى بوجه عام قد أصيب بصدمة عنيفة إزاء معطيات الحضارة الحديثة (الغربية) وإنجازاتها ، ولم يكن يملك يومذاك التحصين الكافى للتعامل الصحيح معها ، وقد بدا أثر هذا الانفعال من خلال رد الفعل الإسلامى بمستوياته المختلفة ، فمن ذلك ، ظهر ذلك الفريق المهزوم بالكلية ، وقد امتلكت الحضارة الغربية لبه وملكت عليه عاطفته ، فحاول - حثيثاً - أن يوفق بين الإسلام والحضارة وأن يوطن الأول للتوافق مع الثانى لا العكس ، ووُجِدَ الفريق الآخر ذلك الرافض بالكلية ، فكان منه إعلان الحرب على ذلك التمدن والتقدم خيره وشره ، وظهر ذلك الفريق الثالث ، الذى كان أكثر وعياً ، ورأي أن المشكلة تعود لعدم الفهم الحقيقى للإسلام ، فضلاً عن تطبيقه عملياً ، ولكن مع ذلك فقد نال ذلك الفريق قدراً من التأثر بالاستغراق كثيراً فى مواجهة هذا التحدى الخارجى ، ودون مراعاة للعوامل الأخرى والمؤثرة على سقوط الأمة ، بنفس الدرجة .

وخطورة الانطلاق من رد الفعل ، أنه يجعل الفاعل أسير العاطفة ، سواء أكان فى إطار الهزيمة النفسية ، أو فى إطار الردع والانتقام (بمواجهة مستعجلة) .

رابعاً - ظاهرة التعجل والاندفاع :

عانى العمل الإسلامى وما زال يعانى من بروز فقاعات بين الحين والآخر ، ومن خلال انفجارها تقوم بنسف ما تم بناؤه ، ثم الدخول فى ممارسات مسدودة من الصدام والنطاح ، ولا يفوت هذه الفقاعات أن تجد لها من المشروعيات

المفرغة مسوغاً فى انطلاقها . وأصبح من الضرورى الآن إيجاد تفسير لهذه الظاهرة وعلاقتها بمسألة التهديف ، وأيهما الذى يؤثر على الآخر - وبعبارة أخرى - أيهما يؤدى إلى الآخر ، عمليات الاندفاع والتعجل هى التى تعوق تحقيق الأهداف ؟ أم أن نوعية الهدف هى التى تدفع إلى التعجل واختزال المراحل ؟

خامساً - النجاح فى الميادين الفكرية :

من الملاحظ أن أبرز الميادين التى استطاع المشروع الإسلامى أن يحقق فيها نجاحات بارزة ، كانت فى الميدان الفكرى ، وما زالت موجات الغزو الفكرى تتهاوى أمام سهام الإسلاميين ، وربما لأن ذلك كان أكثر توافقاً مع قانون التغيير ، فلا بد لأى تغيير سياسى من أن يسبقه سيطرة الفكرة الإسلامية ، وقد يكون من الصعوبة إتمام التغييرين فى آن واحد ، بل إن التغيير السياسى أو الجهاد السياسى يحتاج إلى مرحلة بلوغ معيَّنة فى أمة الدعوة . إما امتلاك أرض أو امتلاك شعب ، وقد تكون محاولة إجراء التغييرين معاً سبباً فى إجهاض أحدهما الآخر كما حدث ، وقد يبدو ذلك واضحاً ، من حكمة بداية الدعوة الإسلامية باستيفاء الحوار والجدال الحسن ، قبل جهاد السيف ، كما لم تقم الدولة فى المدينة إلا بعد أن دخل الإسلام فى كل بيت .

* *

● المودودى وقانون قيام الدولة :

كيف السبيل إلى إقامة الدولة ؟ وكيف تتهيأ الأسباب لذلك بلا اصطدام بالنواميس ، أو تعسف فى التعامل مع المشروعيات ؟ - تحت عنوان « الارتقاء الطبيعى لنظام الدولة » كتب الأستاذ أبو الأعلى المودودى فى رسالته المفيدة « منهاج الانقلاب الإسلامى » :

« والذين لهم أدنى إلمام بعلوم العمران - يقصد علم الاجتماع - يعرفون أن الدولة مهما كان وضعيتها لا تتكون بالطرق الصناعية ، فليست هى التى تُصنع فى مصنع ثم تنتقل منه وتثبت فى موضع آخر ، بل إنها تنشأ فى المجتمع

نشوءاً طبيعياً لأسباب أخلاقية ونفسية وعمرانية وتاريخية وتفاعل هذه الأسباب فيما بينها ، فتكون لها أمور أولية لازمة ومحركات اجتماعية ومقتضيات فطرية تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة انبعاثاً » .

ثم يقول : « كذلك مما أجمع عليه علماء العمران أن الدولة الراسخة البنيان نتيجة طبيعية لمقتضى الأحوال والظروف المتجمعة فى المجتمع ، وأنه يتوقف - كذلك - تعيين هيئة الدولة ووضعيتها الخاصة تماماً على تلك الأحوال والعوامل التى تقتضى تكونها » .

ثم دلل قائلاً : « فكما لا يمكن أن يكون للقضايا صورة مخصوصة ثم تظهر منها بعد ترتيبها نتيجة غير ما تستدعيها القضايا وترتيبها بوجه خاص ، وكما لا يمكن أن تكون للأجزاء الكيماوية خصائص ثم يظهر بعد امتزاجها وتركيبها شئ تختلف خصائصه عما يقتضيه تركيب تلك الأجزاء وتمازجها بصورة مخصوصة ، لكذلك ليس من الممكن أن تجتمع الأسباب لطراز خاص من الدولة ، وتكون طرق عملها أيضاً يلائم ذلك الطراز ولماءه وازدهاره ، ثم حينما تبلغ كمالها أو تكاد ، بعد مجاوزتها مدارج الرقى والنهوض تظهر فى صورة غير التى تقتضيها تلك الأسباب والعوامل . لعمر الحق أن ذلك لا يحدث أبداً » ا هـ .

ولنسأل الآن : إلى أى مدى استطاعت الحركة الإسلامية أن تهيئ الأسباب الخُلُقية والنفسية والاجتماعية التى تكون الأمور الأولية اللازمة والمحركات الاجتماعية ، والمقتضيات الفطرية التى تتجمع وتتقوى حتى تنبعث منها الدولة البعاثاً ؟

* *

● البنا يعترف بالاختزال .. لكن :

ورغم أن دراسات كثيرة قد أقرت بحجم تغلغل حركة الإخوان المسلمين فى المجتمع المصرى ، وكيف أنها حاولت إلى مدى بعيد استثمار فرص بناء المؤسسات والأعمال الاجتماعية ، والتى تندرج تحت تهيئة الأسباب لعمل

اجتماعى يصب فى التغيير فى صالح المشروع الإسلامى بطريقة طبيعية ، فإن ضغط الظرف السياسى والقومى كان مهدداً لهذا المشروع ، ومن أن يؤتى ثماره فى حينه ، ونستدل على ذلك ، بهذا الموقف الذى شاء الله أن يسجله الإمام البنا فى رسائله ، وقد يحتاج منا إلى دراسة وتمعن فى هذا الباب ..

قال الأستاذ حسن البنا : « قال لى أحد أصدقاء الإخوان من الذين لا يُتهمون فى رأى ولا فى نصيحة منذ أيام قلائل : أليس الأروح للإخوان والأجدى على الوطن أن تشتغل هيئة الإخوان بالأغراض الأدبية والاجتماعية والاقتصادية من برنامجها - وهى من الإسلام أيضاً - وتدع الناحية القومية أو السياسية ، بعبارة أخرى لسواها من الهيئات حتى لا يتعرض للعواصف القاسية هذا البناء العالى الذى أصبح للغيورين أملاً ، وفى تاريخ هذه النهضة عملاً ؟

فقلت له فى صراحة وإخلاص وتأثر : والله يا أخى إنى لأشاركك هذا الرأى، وأجد فى أعماق نفسى هذا الشعور قوياً عميقاً ، وأكره أشد الكراهية ما يصحب هذا النضال من مظاهر وآثار فى النفوس وفى الصلات ، وما يجر إليه من نواحى الشهرة والجاه الكاذب الذى يلهى الناس عن الحقائق والواجبات ، وكم كنت أتمنى أن تكون الظروف معى ومعك ، وأن تدع لنا الحوادث من الوقت ما يتسع لهذا الذى نحب وأحب ، وليس ذلك عن حب للراحة أو إيثار للدعة ، ولكن الأمور هى كما ترى الآن » .

ثم بيَّن له كيف أن ضغط عامل الاحتلال والوجود الأجنبى لم يدع للدعوة خيار فى تحمل المسئولية ، وأن الشعور الوطنى فى حاجة لأيد حكيمة تقوده فى الطريق الصحيح ، وكيف أنه لا يجدى أى إصلاح فى ظل الوجود الأجنبى الذى صدَّر للأمة الفساد ، وفى ظل الحكومات الضعيفة - المتلاعب بها من قِبَل الأجانب - والمتحكمة فى رقاب العباد .

ثم ختم إجابته بقوله : « والله يا أخى لو كنا أمة مستقلة تُصرَّف أمورها حكومة يقظة ، لكان فى كل غرض من أغراض دعوتنا على حدة متسع لكل

أوقاتنا ومجهوداتنا ، فهذا الغرض العلمى من شرح دعوة الإسلام والكشف عما فيها من روعة وجمال ، وهذا الغرض الاجتماعى من مواساة المنكوبين ومعاونة البائسين ، وهذا الغرض الاقتصادى من استنفاذ الثروة القومية وتنميتها وحمايتها ، كل غرض من هذه الأغراض يستغرق أضعاف وقتنا ويستنفذ أمثال جهودنا ، ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه » [1] .

قال الإمام هذا الكلام فى اجتماعه برؤساء المنطلق ومراكز الجهاد سنة ١٩٤٥ . ترى لو كان الشيخ رحمه الله بيننا الآن ، هل كان سيستمر على قناعته هذه بالاستغراق فى المسألة القومية ، أم كان سيعطى وقتاً أكثر فى تهيئة الأسباب الطبيعية من أجل قيام الدولة ؟؟ ... الله أعلم .

ومن الطبيعى أن لا يمر هذا الكلام دون قول قائل ، وما الفرق بين حالنا الآن عن أيام الاحتلال ، فما زالت بلادنا محتلة ويحكمها عملاء ؟

ثم لن يفوت معترض آخر - قد أعيته الحيل - أن يقول : وكيف يجدى أى مجهود دعوى أو إصلاحى مع وجود السيطرة لإعلام خبيث يذهب بجهود العلماء والدعاة ؟

ولتضيق بؤرة التفكير من جديد ، ولا مفر إذاً من جولة أخرى مع الحكام .... والله أعلم بمن اهتدى .

* * *

(١) الرسائل للإمام البنا .